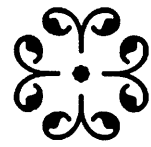

قصة أصحاب الكهف

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة، وغيره:

أن قريشًا بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها، ليختبروا ما يجيب به فيها.

فقالوا: سَلُوهُ عن أقوامٍ ذهبوا فى الدهر فلا يدرى ما صنعها؟

وعن رجل طَوَّافٍ فى الأرض، وعن الروح.

obeikandl.com

فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[1]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) الكهف: ٨٣.

باسطٌ ذِراعَيْه بالْوَصيد لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ منهُمْ فِرارًا ولَمُلِئْتَ منْهُمْ رُعْبًا (١٨) وكَذَلكَ بَعَثْنَاهُمْ ليَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِه إِلَى الْمَدِينَة فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وكَذَلكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾[1].

(١) الكهف: ٩ ـ ٢٦.

يقول الإمام ابن كثير - رضى الله عنه - فى بسط قصتهم وشرحها: إنهم فتية شَبَابٌ، وهم أَقْبَلُ للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين انغمسوا فى دين الباطل. قال مجاهد: بلغنى أنه كان فى آذان بعضهم الْقِرَطَةُ (يعنى: الْحَلَق)، فألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربهم، واعترفوا بالوحدانية، وشهدوا أَنْ لا إله إلا الله.

والكهف: هو الغار فى الجبل، وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأما الرقيم، فقال العوفى عن ابن عباس، هو: وادٍ قريب من أيلة. وكذا قال عطية العوفى، وقتادة. وقال الضحاك: الكهف: غارٌ بوادٍ، والرقيم: اسم الوادى. وقال مجاهد: الرقيم: كان بنيانهم. ويقول بعضهم: هو الوادى الذى فيه كهفهم.

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: الرقيم الجبل الذى فيه الكهف.

وقال علىّ بن أبى طلحه، عن ابن عباس: والرقيم: الكتاب. وقال سعيد بن جبير: الرقيم: لَوْحٌ من حجارة كتبوا فيه قصصَ أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف. وقال عبد الرحمٰن ابن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ «كتاب مرقوم»، وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير.

وهؤلاء الفتية فَرُّوا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فهربوا

منهم، ولَجَئُوا إلى غارٍ فى جبلٍ ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا ـ سائلين الله تعالى رحمته ولطفه بهم ـ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[1]، فاستجابَ الله عز وجل لدعائهم، وألقىَ عليهم النوم حين دخلوا الكهف، فناموا سنين كثيرة، ثم بعثهم الله من رقادهم، وخَرَجَ أحدهم بدراهم معه ليشترى لهم طعامًا يأكلونه.

قال غير واحد من المفسرين (من السَّلَفِ والخَلَف): إنهم كانوا أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يومًا فى بعض أعيادهم، وكان لهم مُجْتَمَعٌ فى السَّنَة يجتمعون فيه فى ظاهر المدينة، وكانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له «دِقْيَانُوس»، وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم نظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، فعرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم ـ من السجود للأصنام والذبح لها ـ لا ينبغى إلا لله الواحد القهار، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه ويبتعد عنهم، فكان أول واحد فيهم قد جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وهكذا آوَى جَمْعُهُمْ هناك الذى جَمَعَ قلوبهم على الإيمان، كما جاء فى الحديث

(١) الكهف: ١٠.

عن رسول الله ﷺ قال: «**الأرواحُ جُنُود مَجَنَّدَةٌ، ما تَعَارَفَ منها ائْتَلَفَ، وما تَنَاكَرَ منها اختلف**»(١).

وجعل كل واحد منهم يكتمُ ما هو عليه عن أصحابه خوفًا منهم، ولا يدرى أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون ـ والله ـ يا قومُ أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيءٌ فَلْيُظْهِرْ كُلُّ واحد منكم بِأَمْرِهِ. فقال آخر: أمَّا أنا فإنِّى رأيتُ ما قَوْمِى عليه، فعرفتُ أنه باطل، وإنما الذى يستحق العبادة ولا يُشْرَكُ به شئ هو الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما.

وقال الآخر: أما ـ والله ـ قد وقع لى ذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا جميعهم على كلمة واحدة، فصاروا يدًا واحدة، وإخوانَ صِدْق، فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه، فعرفَ بهم قومهم، فَوَشَوْا بأمرهم إلى مَلِكِهِمْ، فاستحضرهم بين يديه، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا أخبر الله تعالى: بقوله: ﴿**وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا**﴾(٢).

أَبَى الملكُ عليهم ذلك، وهَدَّدَهُمْ وتَوَعَّدَهُمْ، وأمر بِنَزْع

(١) أخرجه البخارى ومسلم.

(٢) الكهف: ١٤.

لباسهم الذى كان عليهم من زينَةِ قومِهم، وَأَجَّلَهُمْ لينظر فى أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه، وكان هذا من لُطف الله بهم، فإنهم فى تلك الفترة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن.

فاتفقوا على مفارقة أهلهم، وَأَوَوْا إلى الكهف هَرَبًا من الطاغية دقيانوس وقومهم، فبسط الله عليهم رحمته بالنوم، فخرج قومهم يبحثون عنهم، فَعَمَّى الله عليهم خبرهم، كما فعل الله عز وجل بنبيه ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة.

وهكذا ضرب الله على آذانهم، فناموا ـ كما حكى القرآن الكريم ـ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[1].

وكما أرقدهم الله تعالى أيقظهم سبحانه بِهَيْئاتِهِم، فَأَطْلَعَ عليهم أهل ذلك الزمان، حتى لا يماروا[2] فى أمر الساعة، فجعل الله ظهورهم بعد منامهم هذه المدة الطويلة ليكون ذلك حُجَّةً على مُنكرِى البعث ويوم القيامة.

فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ

(١) الكهف: ٢٥.
(٢) أى: حتى لا يُجادلوا.

بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾[1].

كان اسم المدينة «أُفْسُوسَ»، وأرسلوا واحدًا منهم، وأمروه بالْحَذَرِ، وليتلطف مع أهل المدينة، وينتقى أطيب الطعام دون أن يشعر به أحد، خوفًا من أن يقبضوا عليهم، أو يُعيدوهم إلى ملتَّهم بعد أن أنقذهم الله منهم، وهذا لظنهم أنهم رقدوا يومًا واحدًا أو بعض يوم، ولم يحسبوا أنهم رقدوا أكثر من ثلاثمائة عام، وقد تبدلت الدُّوَلُ أطوارًا عديدة، وتغيرت البلاد ومَنْ عليها، وذهبت أجيالٌ بعد أجيال: ذَهَبَ الذين كانوا فيهم وجاء غيرهم، وذهب هؤلاء أيضًا وجاء غيرهم.

خرج أحدهم ـ وهو يَمْلِيخَا فيما قيل ـ وجاء إلى المدينة متنكرًا، لئلا يعرفه أحد من قومه بما يحسبه، فَوَجَدَ الأرض قد تغيرت، والبلدة قد اختلفت مظاهرها، واستنكره من يراه من أهلها، واستغربوا شكله وصفته ودراهمه، فيقال: إنهم حملوه إلى مُتَولهم[2]، وخافوا من أمره أن يكون جاسوسًا، أو تكون له صلة يخشون من مَضَرَّتها، فيقال إنه هرب منهم، ويقال: بل أخبرهم خبره ومن معه، وما كان من أمرهم، فانطلقوا معه ليريهم مكانهم،

(١) الكهف: ١٩ والْوَرِقُ: الدراهم المَضْرُوبَة. وذلك من أجل شراء طعامٍ لهم.
(٢) أى: حاكمهم.

فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه وأخبرهم حقيقة أمرهم ومقدار ما رقدوا، فعلموا أن هذا أمر قدره الله، فيقال: إنهم استمروا راقدين، ويقال: بل ماتوا بعد ذلك.

وأما أهل البلدة فيقال إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار، وعَمَّى الله عليهم أمرهم، ويقال: لم يستطيعوا دخوله جُبْنًا، ويقال حمايةً لهم.

وهذه رواية أخرى لأصحاب الكهف كما وردت فى صفوة التفاسير (٧٦٧): ذكر المفسرون أن ملكًا جبارًا يسمى «دِقْيَانُوس» ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى «طَرَسُوس» بعد زمن عيسى ـ عليه السلام ـ وكان يدعو إلى عبادة الأصنام، ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فلما رأى الفتيةُ ذلك حزنوا حزنًا شديدًا، وبلغ خبرهم الملك الجبار، فبعث فى طلبهم، فلما مثلوا عند الملك تَوَعَّدُهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت، فوقفوا فى وجهه وأظهروا إيمانهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾[1].

فقال لهم: إنكم فتيان حديثة أسنانكم، وقد أَخَّرْتُكُم إلى الغد لتروا رأيكم، فَهَرَبُوا ليلاً، ومروا براعٍ معه كلب، فتبعهم، فلما كان الصباح أَوَوْا إلى الكهف، وتبعهم الملك وجُنده، فلما وصلوا إلى

(١) الكهف: ١٤.

الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم، فقال الملك: سُدُّوا عليهم بابَ الغار حتى يموتوا فيه جوعًا وعطشًا، وألقى الله على أهل الكهف النوم، فبقوا نائمين ـ وهم لا يدرون ـ ثلاثمائة وتسع سنين، ثم أيقظهم الله، وظنوا أنهم أقاموا يومًا أو بعض يوم، وشعروا بالجوع، فبعثوا أحدهم ليشترى لهم طعامًا، وطلبوا منه التخفى والحذر، فسار حتى وصل البلدة، فوجد معالمها قد تغيرت، ولم يعرف أحدا من أهلها، فقال فى نفسه: لَعَلِّى أخطأتُ الطريقَ إلى البلدة، ثم اشترى طعامًا، ولما دَفَعَ النقود للبائع جَعَلَ يُقَلِّبُهَا فى يده ويقول: مِنْ أين حصلت على هذه النقود؟ واجتمعَ الناسُ وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون، ثم قالوا: من أنت يا فَتَىَ؟ لعلك وَجَدْتَ كَنْزًا. . فقال: لا والله، ما وجدتُ كنزًا، إنها دراهم قومى. قالوا له: إنه من عهدٍ بعيد، ومن زمن الملك «دقيانوس». قال: وما فَعَلَ «دقيانوس»؟ قالوا: مات من قرون عديدة! قال: والله ما يصدقنى أحد عَمَّا أقوله: لقد كُنَّا فتيةً، وأَكْرَهَنَا الملكُ على عبادة الأوثان، فهربنا منه عشية أمس، فأوينا إلى الكهف، فأرسلنى أصحابى اليوم لأشترى لهم طعامًا، فَانْطَلِقُوا معى إلى الكهف أُرِيكم أصحابى! فتعجبوا من كلامه، ورفعوا أمره إلى الملك، وكان مؤمنًا صالحًا، فلما سَمِعَ خَبَرَهُ خرج هو والجند وأهل البلدة، وحين وصلوا إلى الغار سَمِعُوا الأصواتَ وجَلَبَةَ الخيل، فظنوا أنهم رُسُل «دقيانوس»، فقاموا إلى الصلاة، فدخل الملك عليهم فرآهم

يصلون، فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك، وأخبرهم أنه رجل مؤمن، وأن «دقيانوس» قد هَلَكَ من زمن بعيد. وسَمِعَ كلامهم وقصتهم، وعرف أن الله بَعَثَهُمْ ليكون أمرهم آيةً للناس، ثم ألقى الله عليهم النوم، وقَبَضَ أرواحهم. فقال النَّاسُ: لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مسجداً.

يقول الشهيد سيد قطب في الظلال: وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحًا صريحًا حاسمًا، لا تَرَدُّدَ فيه ولا تلعثم، إنهم فتية أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم، أشداء في استنكار ما عليه قومهم، ولقد تبين الطريقان، فلا سبيل إلا الالتقاء، ولابد من الفرار بالعقيدة.

* * *

obeikandl.com